مدينة الكوفة
في المراجع الجغرافية العربية
منذ تأسيسها وحتى القرن الثامن الهجري

الاستاذ المساعد
الدكتور علي صاحب طالب الموسوي

الدكتورة
سلمى عبدالرزاق عبد الشبلاوي

مقدمة البحث

يهدف البحث إلى إعطاء صورة واضحة ومتكاملة عن مدينة الكوفة من خلال ما ورد عنها في الفكر الجغرافي العربي وبما يتعلق الأمر بنشأتها وتطورها وخلال حقبة تاريخية استمرت حتى القرن الثامن الهجري حيث توالى عليها التدهور والخراب . ترجع أسباب اختيارنا لهذا الموضوع إلى الأهمية الكبيرة والمكانة المتميزة لمدينة الكوفة كونها شغلت مكانة علمية ودينية عكست اوجه تطورها الحضاري لم تسبقها في ذلك البصرة ولا المدائن حيث اختصت الكوفة عن سائر المدن بقدسيتها فقد أثنى عليها القرآن الكريم وأبان تلك القدسية بقوله تعالى (وآويناهما إلى ربوة ذات قرار معين) ، فالربوة كما فسرها الإمام علي (ع) تعني الكوفة والقرار هو المسجد والمعين تعني الفرات ، كما جاء ذكرها أيضا في قوله جل وعلا (والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين) ، فالتين هو المدينة والزيتون بيت المقدس وطور سينين تعني (

الكوفة) والبلد الأمين هو مكة (تاريخ الكوفة ، للمؤرخ الشهير السيد حسين بن السيد احمد البراقي ، ص ٣٦).

لقد ازدادت مكانتها بعد أن أصبحت عاصمة للإمبراطورية العربية الإسلامية خلال خلافة الإمام علي بن أبي طالب (ع) إذ قال عنها : (الكوفة كنز الإسلام وسيف الله ورمحه يضعه حيث يشاء) ، كما قال عنها الخليفة عمر بن الخطاب (رض) مخاطبا سعد بن أبي وقاص عن الكوفيين : (هم رمح الله وكنز الإيمان وجمجمة العرب يحرسون ثغورهم يمدون الأمصار) ، ووصفها اليعقوبي بقوله : (إن الكوفة مدينة العراق الكبرى والمصر الأعظم وقبة الإسلام ودار هجرة المسلمين ، فهي اول مدينة اختطها المسلمون في العراق وهي من أطيب البلدان وأفسحها وأغناها وأوسعها) ، ولم يقف الأمر عند ذلك فقد كان لمكانتها اثر في نفوس الباحثين من غير العرب فقد أعطى السير لويس ماسنيون (المستشرق الفرنسي) وصفا رائعا لها، إذ يقول : (بان الكوفة تعرض لنا صورة واضحة في التمصير وتثبيت القبائل البدوية لم تكن عليها أختها البصرة ولا دمشق ولا الفسطاط ولا القيروان) وحظي من سكن ارض الكوفة بمكانة عند المسلمين فاصبح محط أنظار الناس ، فقد ورد في ذكرهم قول الخليفة عمر (رض) بأنهم (راس العرب) ويصفهم كذلك (وجوه الناس) ، وان الكوفة قبة الإسلام يأتي على الناس زمان لا يبقى مؤمن إلا وهو بها أو يهوى قلبه إليها .

فرضت طبيعة بحثنا وخصوصيته أن ينصب ما ورد فيه على ما كتبه الجغرافيون العرب القدماء، عن طبيعة البيئة الجغرافية التي نشأت فيها وما تميزت به من خصائص في طبيعة السطح والتربة والمناخ وموارد مائية والتي ساهمت في اختيار موضعها وتطوره ، واتخاذها عاصمة للخلافة العربية الإسلامية فيما بعد ، وحاولنا وبقدر المستطاع أن يكون بحثنا هذا ذو اتجاه ومنحى متميز عن ما كتب عن الكوفة والذي تناولها تاريخيا مما تتطلب أن

تكون الدراسة ذات وجهة جغرافية متخصصة تطلبت البحث والاستقصاء الطويلين في عدد كبير من المخطوطات والتراجم والمصادر الجغرافية القديمة والنادرة التي كانت تحوي الكثير عن الكوفة بحيث أغنت بحثنا وبما يتعلق بالجوانب الجغرافية فقط .

الفصل الاول

الموقع الجغرافي لمدينة الكوفة ونشأتها

أولا: الموقع الجغرافي:

تشير مصادر الفكر الجغرافي بان الكوفة كانت تحتل موضعا جغرافيا ضمن أراضي انتشرت فيها ديارات ودساكر وقرى صغيرة تشكل جزء سهليا من الضفة اليمنى للفرات الأوسط ، ويقع هذا الموضع شمال شرق مدينة الحيرة ، كان يطلق عليه اسم (سورستان)(*) او خد العذراء ، كما يشكل هذا الموضع لسانا من الرمل يمتد بين الأراضي الصحراوية من جهة والفرات من جهة أخرى تخترقه شبكة من الأنهار فضلا عن تربته الخصبة .

يقع هذا الموضع عند دائرة عرض إحدى وثلاثون درجة وثلثان بينما يقطعه خط طول تسع وستون درجة ونصف شرقا ، ويتضمن هذا الموقع مساحة بلغت حوالي (ستة عشر ميلا وثلثي الميل) فيما بلغ عدد سكانها حوالي خمسين ألف دار للعرب ، اغلبهم من ربيعة ومضر وأربع وعشرين ألف دار لسائر العرب وسبعة آلاف دار لليمنيين (ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مج ٢٤ ، ص ٤٩٢) .

يعد هذا الموقع الجغرافي ذو أهمية كبيرة حيث عده البعض بأنه كان ثغرة من ثغور البادية ونقطة ارتكاز لتبادل البضائع والسلع بين سكان بلاد

(*) سور ستان : كلمة فارسية مشتقة من الاسم الفارسي شورشتان والذي يعني الصحراء .

فارس من جهة وسكان شبه الجزيرة العربية وبادية الشام من جهة أخرى ، كما كان جسرا للاتصال بين التجمعات العربية المنتشرة في ارض البادية وأهل المدن والقرى من الآراميين اللذين سكنوا هذا الموضع قديما ، فضلا عن أشراف هذا الموقع على (جسر الزوارق) المنصوب على نهر الفرات والذي يؤدي إلى الطريق التجاري الكبير الذي يربط أعالي آسيا بأقصى اليمن (شكل رقم ١) .

شهد الموقع الجغرافي لمدينة الكوفة تطورا بعد إنشائها وتوسعها بحيث اثر في مجمل جوانبها بعد تمصيرها حتى وصلت أوج عظمتها خلال العصور الإسلامية اللاحقة بحكم تطورها في الجوانب العلمية والدينية حتى وصفها الاصطخري (بأنها تضاهي البصرة من حيث السعة والبناء) واهتدى بها الحجاج عند بناء مدينة واسط والمنصور عند بناء بغداد فيما بعد ، كما عدت مكانتها بحكم موقعها مع البصرة قمة التطور الذي تحولت إليه كنوز المدائن وحضارة بابل والحيرة حتى إذا قيل العراق فمعناه البصرة والكوفة اذ كان يطلق عليهما (بالعراقين) (المسعودي ، مروج الذهب ، ج٢ ، ص ٥٤) . ويعكس لنا الموقع الجغرافي لمدينة الكوفة بان التاريخ العربي الإسلامي خلال القرن الأول للهجرة هو تاريخ الكوفة والذي ارتبط بموقعها هنا وما نتج عنه من تطور شمل نواحيها الاقتصادية والسياسية والإدارية والعسكرية فأصبحت تدير بعد ذلك شؤون الإقليم الأوسط من العراق وما اتصل به إداريا من إقليم الجزيرة في شمال غرب العراق والأقاليم المحيطة في أرمينيا وأذربجان وخراسان وبلاد فارس .

ثانيا: اشتقاق تسميتها :

اختلفت الآراء التي وردت في مصادر الفكر الجغرافي والتاريخي ومعاجم اللغة حول تفسير تسمية واصل كلمة الكوفة ، فقد أوضحنا بان الكوفة لم تكن معروفة بهذا الاسم قبل تمصيرها إذ كان لموضعها تسميات متعددة منها سورستان او الصحراء وخد العنزاء ولم تطلق تسمية الكوفة على هذا الموضع

إلا بعد أن بنى العرب مدينتهم فيه حيث أطلقوا عليه هذا الاسم ، وإذا أردنا البحث في أصل كلمة (كوفة)فينبغي علينا أن نستعرض الآراء التي وردت عند اللغويين والمؤرخين والجغرافيين العرب حول ذلك .

يؤكد السير لويس ماسنيون في كتابه (خطط الكوفة) بان كلمة (الكوفة) سرياني عرف عند طائفة السريان ، حيث يبدو ان خصب الموضع قد جذب كثيراً من السريان الى اقامة ديارات لهم وبناء منازل هناك لكثرة الجداول والمياه التي تأتي من نهر الفرات ، وقد كان في العادة ان تبنى تلك الديارات حيث يتوفر الماء ويكثر النبات ، وكان هذا الموضع معروفاً انذاك باسم عاقولا او (باكيولا) واللتان تعنيان(حلقة وما يشبه الدائرة)(ماسنيون ، خطط الكوفة وشرح خريطتها ، ص ٢٥) .

ويميل الباحث العراقي يعقوب نعوم سركيس الى القول بان تسمية الكوفة آرامي حرّف من كلمة ((كوبا)) وحاول ان يفسر لنا كلمة (كوبا) فذكر انه ورد في احد المصادر للكنيسة السريانية بان الكوفة كما يقال لها (كوبا وكملا) بكاف فارسية (عرف عاقولا)ترعاه الابل ، ثم حرفت بعد الفتح الاسلامي وقالوا (كوفة) حيث عدوها من العربية (الجنابي ، تخطيط مدينة الكوفة من المصادر التاريخيه والاثرية ، ص ١٦) .

واوردت المصادر اللغوية بان كلمة (كوفة) بالضم هي المصر المشهور بارض بابل من سواد العراق حيث سميت الكوفة لاستدارتها اخذاً من قول العرب (رأيت كُوفاناً وكَوفاناً) بضم الكاف وفتحها للرمال المستديرة (ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مصدر سابق ، ص ٤٩٠) . كما اخذت الكوفة من الكوفان والذي يرد على لسان العرب ((هم في كُوفانٍ)) ، وورد اشتقاق لكلمة كوفة ايضاً بانه يعني (القطعة من الارض) حيث يقال :- (أعطيت فلاناً كَيفةً) أي قطعة ، فالكوفة قطعة من هذا انقلبت الياء فيها واواً لسكونها وانضمام ما قبلها (ياقوت الحموي ، المصدر السابق ، ص ٤٩٠) ،

كما اشارت مصادر الفكر الجغرافي بان كلمة كوفة مشتقة من البيئة الطبيعية اذ ان كل رمل خالطه حصى فهو كوفة (المقدسي ، احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، ص ١١٦) على حين يرد البعض على ان الكوفة سميت نسبة الى جبل صغير في وسطها يقال له (ساتيدما) أي (كوفان) اختطت عليه مهرة موضعها ، وكان الجبل يحيط بها كالكفاف عليها ومرتفعاً عنها فسميت به (معن حمدان علي ، مباحث عراقية في الجغرافية والتاريخ ، ص ١٣٩).

وورد بان سعد بن ابي وقاص عندما اراد ان ينزل الموضع هذا قال للمسلمين (تكوفوا) في هذا المكان أي (اجتمعوا) فيه ، وقال لهم (كوفوا هذه الرمال) أي اجمعوها ، وتشير معاجم اللغة بما يعزز الاشتقاق الطبيعي لمدينة الكوفة ، فقد ورد في القاموس وشرحه تاج العروس ان (الكُوفة) بالضم تعني الرمال الحمراء المجتمعة ، او ان كل رملة حمراء تخالطها حصباء فهي كوفة ، وفي قاموس المحيط ورد بان (الكُوفة) بالضم تعني الرملة الحمراء المستديرة ، او كل رملة حمراء تخالطها حصباء .

اما مختار الصحاح فيرد فيه بان الكوفة هي (الرملة الحمراء) وفي المصباح المنير فقد ورد فيه بان الكوفة مدينة مشهورة في العراق سميت لاستدارتها ، وأخيراً فقد ورد بان المنطقة التي اجتمع فيها الجند سميت (كوفة الجند) كما في قول الشاعر (عبده بن الطيب العبشمي) :

إنّ التي وَضعَتْ بيتاً مُهاجِرةً بكوفةِ الجُندِ غالَتْ ودها غولُ

(محمد حسين الاعرجي ، الشعر في الكوفة ، ص١١٠)

يظهر لنا بان معظم المصادر تتفق بان تسمية الكوفة مستمدة من البيئة الطبيعية التي نشأت فيها ، فالقاصد من الكوفة الى النجف أو العكس لا يجد في طريقه غير هذه الرمال الحمراء التي تخالطها الحصى ، وان العرب عندما ارتادوا هذا الموضع شاهدوا تلك الرمال فاسموها باسمها .

نشأة مدينة الكوفة :

تتفق معظم المصادر الجغرافية والاريخية القديمة على ان الكوفة كانت فيالاصل مجموعة من الديارات والقرى اقيمت عند الضفة اليمنى لنهر الفرات او ما يسمى بنهر العلقمي حيث ان نهر الفرات كان يمر بمدينة هيت سابقاً كان ينقسم الى فرعين رئيسيين احدهما يمر بمدينة (سورا) ويجتازها الى النيل ويسمى بنهر (سورا) والثاني يمر بمدينة الكوفة والذي يعرف بنهر العلقمي (طاهر العميد ، تخطيط المدن العربية الاسلامية ، ص ٢٢٩). وهنا الموضع على النهر أُختير بعد ذلك ليكون مدينة للكوفة .

يعتب تأسيس مدينة الكوفة احد الضرورات الحربية التي تطلبتها الفتوحات الاسلامية لبلاد فارس عبر ارض السواد وخصوصاً بعد ان تقدمت الجيوش الاسلامية واصبحت المسافة طويلة بين المدينة حاضرة الدولة العربية الاسلامية وبين ميادين لقتال مما يتطلب الامر ان يجد المسلمون لهم نقطة ارتكاز تكون بمثابة المعسكر الثابت والقريب لميادين القتال فضلاً عن الاحساس الذي تولد عند العرب بعد الفتح العربي للعراق بضرورة الاستقرار فعمدوا الى البحث عن منطقة تصلح لذلك فاستقر رأيهم اولاً عند المدائن والتي لم تلائمهم ثم الكوفة ثانياً .

يبدأ تاريخ نشأة الكوفة لفعلي بعد انهيار الحكم الساساني في العراق اذ اثبتت التحريات الاستكشافية بان الكوفة اسلامية المنشأ وأنها ثاني المدن العربية الاسلامية التي اقامها العرب المسلمون خارج الجزيرة العربية وانها مصرت سنة ١٥هـ (المسعودي ، مروج الذهب ، المصدر السابق ، ص ٢١١). بينما يرى آخرون بان سنة تمصيرها قد تم سنة ١٧ه / ٦٣٨م وفي شهر محرم لسنتين وشهرين بعد موقعة القادسية (محمد حسين الزبيدي ، الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الكوفة في القرن الاول الهجري ، ص ٢١) .

اظهرت لنا آراء الجغرافيين والبلدانيين العرب بان الموضع الذي تم الاتفاق عليه لم يأت اختياره اعتباطياً ، وانما كان بعد بحث دقيق ومتواصل يمكن

ادخاله تحت عاملين اساسيين هما :

أ- العوامل العسكرية :

أوضحت لنا الفتوحات العربية بأن العرب عندما توغلوا في فتوحاتهم خارج أرض الجزيرة العربية باتجاه الشمال ، و من خلال الانتصارات التي تحققت في حروبهم مع الفرس في جبهة المدائن دفعت القائد سعد بن أبي وقاص إلى التفكير في اتخاذ موضع أو مخيم يستخدمه كنقطة ارتكاز يستريح فيه الجند بعد القتال و يتابع من خلاله تقدم جيشه في سوح القتال ، كما يشكل هذا الموضع حماية له ولجيشه عند التراجع فضلا عن اتخاذه مركزا لتمويت ساحات القتال للجند و المؤن ، و قد وصفه عمر (رض) بقوله :كونه دار هجرة ومنزل جهاد (مصطفى عباس ، العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن العربية الاسلامية ، ص ٨٦).

اظهرت المتغيرات العسكرية بان العرب هم بامس الحاجة لمستقر لهم ولعوائلهم المرافقة لهم وان يكون هذا الموضع المنتخب على وفق الاسس التي شدد عليها المسؤولون العرب آنذاك والتي منها ان يكون هذا الموضع على اتصال سهل ووثيق بمركز الخلافة ، وان تتفق مواصفاته مع الستراتيجية العسكرية العربيةفي مسألة الانسحاب باتجاه الصحراء عندما يواجه المقاتلون العرب مصاعب عسكرية ، وتتفق تلك المواصفات مع الارض التي نشأت فيها الكوفة اذ انها تقع على حافة الصحراء المتصلة بشبه الجزيرة العربية ولا يفصل بينها وبين العاصمة ماء او جسر والذي يعزز المكاتبات التي كانت بين عمر (رض) وسعد بن ابي وقاص والتي منها (لا تجعل بيني وبينهم بحرا ...) (البلاذري ، فتوح البلدان ، ج٢ ، ص ٣٣٩) وفي رواية اخرى (لا تجعل بيني وبينهم بحراً وعليك بالريف) ، فضلاً عما ورد من عبارات :- مثل (على طرف البر) او (قريب من الريف) او (على طرف الصحراء) حيث كلها تتضمن المدلول العسكري وتبرز سمات مشتركة في تأسيس مدينة الكوفة وتتوافق

مع المفهوم الستراتيجي العسكري في تلك الفترة المبكرة من تاريخ نشأة المدن العربية .

ب- العوامل الجغرافية :

تعكس لنا كتابات الجغرافيين والمؤرخين العرب بأن اختيار العرب لمواقع محددة لتكون مدناً ومستقراً لهم ان تأخذ بنظر الاعتبار عناصر البيئة الجغرافية والتي عدها البعض بأنها من العوامل الضاغطة في نبذ العرب لبعض المواقع وتفضيل اخرى ، وقد تبين لنا بان انتقال الجيوش العربية الاسلامية من البيئة الصحراوية ذات الخصائص الطبيعية المحددة في بيئات جغرافية مغايرة ، له تأثيره الكبير في اوضاعهم الصحية ، فعند استقرارهم في المدائن والتي تقع ضمن ارض طينية وشطآن وحلة رطبة الجو تنتشر فيها الحشرات والامراض اثرت على المقاتلين العرب حتى ظهر ذلك في كتابات احد المقاتلين الى الخليفة عمر (رض) بقوله :- (ان العرب قد اشرفت بطونها وجفت اعضائها وتغيرت الوانها) (احمد عادل كامل ، فتوح الشرق بعد القادسية ، ص ١٦١)، كما ان استفسار الخليفة عمر (رض) عنهم بقوله : (انبئني ما الذي غير الوان العرب ولحومهم) ، فرد على ذلك سعد بن ابي وقاص قائلاً : (ان العرب خددهم وكفن الوانهم وخومة المدائن ودجلة)[*] ، اذ ان جو هذه المنطقة الرطب لم يلائم لعرب الخارجين من اعماق الصحراء الحارة الجافة فاستوخموها واستوبئوها (البلاذري ، فتوح البلدان ، مصدر سابق ، ص ٢٢٧)، ونظراً لهذه الظروف المناخية والصحية فقد بدأ البحث عن منطقة اخرى تتوافر فيها الظروف المناخية والتي تجمع بين خصائص البيئة لصحراوية والموقع الجديد .

برز اثر العوامل الجغرافية في اختيار الموضع الجديد من خلال القرار

(*) خددهم تعني اضعفهم ، وكفن الوانهم تعني غير او بدل الوانهم .

الذي اتخذه سعد بن ابي وقاص بترك موضع المدائن والانتقال الى موضع جديد في منطقة الفرات الاوسط يقترب من الصحراء ويحمل بعض خصائص البادية المناخية ، وان هذه البيئة الجغرافية الجديدة تشبه البيئة التي خرجوا منها بحيث ادرك عمر (رض) بثاقب فكره اهمية العامل الجغرافي في اختيار البيئة التي تصلح لاستقرارهم بحيث يظلوا محتفظين بنشاطهم وحيويتهم وقوتهم ، فضلاً عن ذلك فان المنطق العسكري يعزز ذلك الاختيار اذ لا يوجد فاصل طبيعي بين هذا الموضع وبين مركز القيادة في المدينة كما اكد الخليفة عمر (رض) على ذلك بقوله : (لا تجعلوا بيني وبينكم ماء حتى اذا شئت ان آتيكم ركبت ناقتي فأتيتكم ...) (محمد احمد حسونة ، اثر العوامل الجغرافية في الفتوح الاسلامية ، ص ٢٨) ، كما ان هذا الموقع يوفر للقوات العربية امكانية التراجع الى الصحراء اذا ما تعرضوا لهجوم من القوا الفارسية الآتية من الشرق وان ما يعزز اثر العوامل الجغرافية في نشأة مدينة الكوفة كونها كانت موضعاً لعدد من القرى والديارات والتي استقرت فيها لخصوبة تربتها وكثرة الجداول التي تخرج من نهر الفرات ، اذ جرت العادة ان تبنى تلك الديارات حيث يتوفر الماء والتربة الخصبة وترتفع الارض عما يجاورها ليجنبها اخطار الفيضانات وتجمع المياه وما ينتج عنه من تكون برك آسنة كما كانت عليها المدائن .

يتضح لنا مما تقدم بأن نشأة مدينة الكوفة هو نتاج تفاعل العوامل العسكرية والجغرافية اذ ان التفكير بترك موضع المدائن والانبار بموضع الكوفة هو حربي بحت أولاً كما ان موضع المدائن لا يصلح من الناحية الحربية لوجود عائق طبيعي هو الفرات مما يتسبب عنه وعن بحيرة الحبانية من فيضانات ومستنقعات ولبعدهما عن العاصمة المدينة ثانياً فضلا عن ذلك فقد كان ضغط العوامل الجغرافية اكثر وضوحاً في التحول عنهما باتجاه الكوفة والذي حدده الخليفة عمر (رض) في قوله لسعد (انزل العرب منزلاً غربياً

ومرتفعاً عن المياه) ، فكان البحث عن هذا الموقع المناسب فوقع الاختيار على ارض ارتفعت عن الفلاه معروف بنباتاته من الخزامي والاقحوان والشيح والقيصوم والشقائق وغيرها وكان يعرف بسورستان او خد العذراء (الزبيدي ، الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الكوفة ، مصدر سابق ، ص ٢٢) . كما يتميز هذا الموضع بصفات مناخية تتمثل بصفاء الجو وعذوبة النسيم خاصة اذا كان هبوب رياحها شمالياً غربيا .

وقدكتب سعد يعلم الخليفة بهذا الموضع والذي يقع على الضفة اليمنى لنهر الفرات بقوله : (اني نزلت الكوفة منزلاً بين الحيرة والفرات برياً وبحريا) (عيسى سلمان واخرون ، العمارات العربية الاسلامية في العراق، ص ٥٦)، فجاءت موافقة الخليفة على هذا الاختيار بجوابه لسعد (ان العرب بمنزلة الابل لا يصلحها الا ما يصلح الابل ، فارتد لهم موضعاً عدنا ولا تجعل بيني وبينهم بحرا) .

ويلاحظ ايضاً بان العوامل الجغرافية اظهرت بجلاء ان اختيار موضع مدينة الكوفة والذي يتمثل بارتفاعها ووفرة مياهها وجمعها بين الخصائص المناخية للبر والبحر وما تمتلكه من خصوبة في التربة تعتبر اهم الاسس في نشأتها فضلاً عن كونها قريبة الشبه بمدينة البصرة كما جاء في وصفها (بانها قريبة ن البصرة في الكبر ، هواؤها اصح وماؤها اعذب من ماء البصرة وهي على الفرات) (الاصطخري ، مسالك الممالك ، ص ٨٣) .

تخطيط مدينة الكوفة وتركيبها الداخلي :

تقدم لنا مصادر الفكر الجغرافي واعتماداً على ما ذكره الجغرافيون بأن تخطيط مدينة الكوفة جاء بعد تخطيط مدينة البصرة بسنتين أي (١٧ هـ / ٦٣٨ م) ، وان عناصر تخطيطها تشبه الى حد كبير العناصر التي اختطت عليها البصرة بعد ان توسعت مساحتها فوصلت الى ما يقرب من مائة وخمس وثلاثين كيلومتراً مربعاً ، بطول بلغ حوالي خمس عشرة كيلومتراً وعرضاً قدره تسع

كيلومترات (كامل سلمان الجبوري ، تاريخ الكوفة الحديث ، ج ١ ، ص ٢٠).

استخدم العرب عند استقرارهم في المدينة القصب والبردي في بناء وحداتهم العمرانية ، حيث استأذنوا الخليفة عمر (رض) فوافق على ذلك بقوله : (لا أخالفُكُم فابتنوا بالقصب) ، فاستخدموا هذه المادة والتي كانت تتوفر بكثرة في بطائح الكوفة .

يعد مسجد الكوفة اول وحدة عمرانية اتُّخِذَت عند تخطيط المدينة ، وقد خُط في منطقة القلب تبعه وضع تخطيط (دار الامارة) ثم خطط المناهج والدور ، وقد كان موضعا المسجد ودار الامارة لا يبعدان عن نهر الفرات الا بنحو الكيلو متر والربع تقريباً (شكل رقم ٢) .

تعتبر المادة الاولية التي واعتمدها العرب في تخطيطهم لمدينتهم والمتكونة من القصب والبردي لا تستطيع ان تقاوم الظروف الطبيعية اذ تعرضت المدينة لنشوب حريق فاحترق ثمانون عريشاً ولم تبقَ فيها قصبة (البراقي ، مصدر سابق ، ص ١١) ، فخاطب سعد الخليفة يستأذنه ان يكون بناء المدينة باللبن والطين فأجابهم بقوله : (افعلوا ولا تزدن احدكم على ثلاثة ابيات ولا تطاولوا في البنيان والزموا السنة تلزمكم الدولة) (د. يوسف خليف ، حياة الشعر في الكوفة ، ص ٢٥).

اصبح المسجد مكاناً متميزاً في بنائه وسعته لأقامة صلاة الجمعة ولدوره ومكانته السياسية والادارية ، وقد كانت له قدسية متميزة عند العرب والمسلمين ، فقد ورد عن قدسيته بأن في زاويته (فار التنور) وعند الاسطوانة الخامسة (صلى ابراهيم) ، وفيه عصا موسى وشجرة اليقطين ومصلى نوح (ع) ، وفي وسطه روضة من رياض الجنة لو علم الناس ما فيه من فضائل لأتوه حبوا (القزويني ، اثار البلاد واخبار العباد ، ص ٢٥) .

تم توزيع القبائل والمناهج ابتداءاً من المسجد الجامع فاصبح المجمع العمراني المدني لاهل الكوفة موزعاً على سبعة اقسام سكنية عرفت (اسباعاً)

صارت الاساس الطوبغرافي للمدينة ، ووضع بين هذه الاقسام السبعة طرقاً عرفت بالمناهج وكان عددها خمسة عشر منهجاً عرضها تراوح بين اربعين ذراعاً للقريبة من المسجد وما يليها ثلاثين ذراعاً وبين ذلك عشرين ذراعاً ، بينما بلغ عرض الازقة سبعة اذرع فقط .

وُزِّعت هذه المناهج توزيعاً منتظماً ابتداءاً من المسجد ، فقد تفرع فيه خمسة عشر منهجاً من جهته الشمالية واربعة مناهج من جهة قبلة الصحن ، وثلاثة مناهج من شرق الصحن وثلاثة مناهج اخرى من جانب الصحن القريبة ، واصبحت هذه المناهج فيما بعد شوارع عامة سميت (سككاً) وضعت بينها مفارق طرق عرفت (جهارت سوج)(*) .

اتخذ لتوزيع القبلي هذه المناهج اساساً مهماً في تنظيم بنية المدينة الداخلي اذ تم الالتزام به في توزيع المحلات على جانبي هذه لمناهج آخذين بنظر الاعتبار ما يطرأ على المدينة من توسيع في المستقبل .

تعد الاسواق احد المظاهر المهمة التي أُخذت ايضاً بنظر الاعتبار عند تخطيط مدينة الكوفة ، فقد كانت الاسواق في بداية امرها غير محددة في مكان واحد الا انها جمعت فيما بعد في سوق رئيسي واحد وصفه لنا اليعقوبي بانه كان يمتد من قصر الامارة (أي دار الامارة) والمسجد الجامع حتى دور القبائل في الجنوب ، وكان هذا السوق جليل وكثير الخيرات (المقدسي ، احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، مصدر سابق ، ص ١١٦) .

(*) جهارت سوج :كلمة فارسية متكونة من مقطعين: جهارت وتعني : اربع و(سوج) وتعني اتجاه حيث تعني الجهات الاربع (ماسنيون،مصدر سابق ،ص٧٠

الفصل الثاني

البيئة الطبيعية لمدينة الكوفة

" في موارد الجغرافيين العرب "

أ: طبيعة السطح – التضاريس

تشير لنا مصادر الفكر الجغرافي بان الموقع الجغرافي الذي شغلته مدينة الكوفة وعلى الضفة اليمنى لنهر الفرات هو في ضمن منطقة السهل الرسوبي العراقي وان طبيعة ارضه تكونت بفعل عمليات الارساب التي كونتها مجاري الانهار حيث ترسبت الذرات الدقيقة عند ضفاف النهر بينما الاكبر حجماً تبتعد عن كتف النهر مُشَكلة لسان من الرمل يتصل بهذا السهل من جهته الغربية وينحدر باتجاه يرتفع شرق نهر الفرات حتى حدود الهضبة الغربية . تبدأ طبيعة السطح بالارتفاع من منطقة ضفاف النهر (منطقة الكتوف) تبعاً لحجم الرواسب كما انها تقل باتجاه الغرب والجنوب ، وهذا الارتفاع جنّب موضعها الفيضانات المتكررة لنهر الفرات ومدنه التي تقع شمال الموضع او جنوبه آنذاك ، لذا فكان اختيار هذا الموضع يشار له بعبارات ذات مدلول جغرافي كان يرمز الى طبيعة ارتفاعه ومنها (ادلك على ارض ارتفعت عن البحر وانحدرت عن الفلاة) (المسعودي ، مروج الذهب ، ج٢ ، ص٣٢٩) ، وكذلك (ادلك على ارض ارتفعت عن المبقة [*]) وادلع البر لسانه في الريف ، فما كان يلي الفرات فهو الملطاط[*] ، وما كان يلي الظهر فهو النجاف (ابن قتيبه ، عيون الاخبار ،

(*) المبقة :بقَّ المكان وابقّ : كثر بقه وارض مبقة : كثيرة البق (لسان العرب ، مج١ ، ٢٣ ، مادة بق)

(*) الملطاط:طريق على ساحل البحر ، والملطاط حافة الوادي وساحل البحر المتصل به ويعني ذلك شاطئ الفرات (لسان العرب،مج٢ ،٣٩٠بيروت١٩٥٦م

ج١ ، ص ٢١٨) .

تتصف طبيعة السطح هذه بالارتفاع عن الاراضي المجاورة سواء ارض الفلاة (الصحراء) في غربة ام الاهوار التي تقع الىجنوبه ، مما جعل ذلك الموضع لمدينة الكوفة يرتفع فوق مستوى الفيضانات ، ويصل ارتفاعها الىحوالي ٢٢ متر فوق مستوى سطح البحر والذي يبعدها عن المناطق المجاوره المنخفضة التي تشغلها الاهوار والمستنقعات المعروفة باسم (البطائح) ، اما الضفة الغربية من نهر الفرات لموضع الكوفة فهي اعلى من الضفة الشرقية يتراوح بين بـ (٥-٦) متر ويقل هذا الارتفاع كلما تقدمنا جنوبا.

تتكون طبيعة سطحها من ارض رسوبية خصبة بصورة عامة ، اما مادون ذلك غربا فهي ارض رملية تختلط بنسب من الحصى ترتفع مع الانحدار غربا بحيث تؤلف طبيعة السطح مظهرا تضاريسيا تكون قشرته السطحية عبارة عن صخور رملية او حجارة كلسية تقل فيها المستنقعات وتدخل في ضمن حدود النجف .

وكانت تلك الاراضي تقترب من ضفاف نهر الفرات أكثر من اراضي الحيرة والمدائن وهذه تدخل بين ارض سهلية تسقى بمياه النهر من جهته الشرقية على حين تدخل في ضمن بطون الوادي الصحراوي في جهته الغربية (جعفر محبوبة ، ماضي النجف وحاضرها ، ج ١، ص ٤) ،وان هذا الانخفاض من جهة الغرب والجنوب يدخلها في ضمن بحيرة ضحلة تشكل جزء من بحر النجف (اليعقوبي ، البلدان ، ص ٧٩) .

يعتبر هذا التكوين الطبيعي للاراضي التي تشغلها الكوفة آنذا ذاك امتداد طبيعي للسهل الرسوبي العراقي المتصل من اطراف الصحراء لارض بلاد الشام (بادية الشام) غربا ، وتتخللها مياه نهر الفرات وجداوله التي كانت تنتهي

مياهها في الحيرة جنوبا ، كما تتخلل طبيعة السطح هذه عدد من الجبانات (*) والتي تتخللها المزارع الواسعة والبساتين الغنية باشجار الفاكهة فضلا عن طوب غرافية سطحها يتميز بوجود ساحات وافية واسعة كانت تدعى بالصحاري (ماسينيون ، مصدر سابق ، ص ٧١) .

ب-البيئة المناخية

يعتبر المناخ احد العوامل المؤثرة في نشوء وتطور المدن العربية قديما ومنها مدينة الكوفة اذ حرص العرب ان تكون مدينتهم التي يختطونها ذات مواقع جغرافية تمنحها خصائص مناخية تتلائم مع صحة الانسان العربي وتجنبه انتشار الحشرات والهوام ووخومة الجو وان توفر لهم مظاهر تحتاج لها النفس العربية التواقة لذلك .

تعكس هذه الخصائص لنا بدء ظهور وتطور المدن في العراق والتي تضمنت ادراك العلاقة بين المظاهر الصحية والخصائص المناخية حيث تم تحديد افضل المناخات لمواقع المدن ، فقد فضل العرب في اختيار مدنهم ان تتصف بنمط فصلي متميز مع تقلبات دائمة للطقس ودفء مقترن بامطار تشجع على ممارسة الزراعة والرعي ، لذا فان مواقع المدن العربية الاسلامية والتي تقع في ضمن العروض المعتدلة في العراق كانت اكثر من غيرها تطورا في الحركة المدنية الاسلامية لكونها تخضع لنظام الطقس المتقلب التي تفرضه طبيعة الانخفاضات الجوية في القطر ، فضلا عن ذلك فان مراكز الحضارة

(*) الجبانات :جمع جبانة ، والجبانة بالتشديد الصحراء ، وتسمى بها المقابر لانها تكون في الصحراء تسمية للشيء بموضعه ، والجبان ماستوى من الارض في ارتفاع ويكون كريم المنبت ، وقال ابن شميل الجبانة ما استوى من الارض ولا شجر فيه ولا تكون الجبانه في الرمل ولا في الجبل ، وكل صحراء جبانة . (لسان العرب ، مج ١٣/٨٥/مادة جبن

العربية قد انتقلت من مناطق ذات مواقع في ضمن مناخات مدارية او شبه مدارية نحو مناخات معتدلة في القسم الاوسط والشمالي ، فمن صنعاء ومأرب وعدن الى الحيرة والحضر وتدمر قبل الاسلام ، ومن مكة والمدينة والطائف الى البصرة والكوفة في العصورالاسلامية اللاحقة .

يظهر لنا موقع مدينة الكوفة بانه قائم وفق الاسس اعلاه بعكس ماكانت عليه مدينتهم السابقة المدائن والتي كانت قائمة على ارض طينية تخترقها شطآن تنتشر فيها الحشرات المسببة للامراض ، وانها ذات جو وخم ذو رطوبة عالية ، وهذا كله يخالف مادرج عليه ساكن الصحراء او يغايره فلم توافق تلك الخصائص العرب فيها فاخذوا يبحثون عن موقع جديد فكان موضع الكوفة الذي هو اكثر ارتفاع عن مستوى سطح البحر من المدائن والبصرة وذو مناخ معتدل وجو رائق يبعدهم عن وخومة جو المدائن ورطوبته فضلا عن وقوعه في مهب الرياح الشمالية والتي تسهم في خفض درجة الحرارة والرياح الجنوبية التي تحمل معها خصائص البيئة عند مرورها فوق اشجار ونبا ت الخزامي والاقحوان والشيح والقيصوم وشقائق النعمان والذي استرعى انظار العرب الباحثين عنه ،وقد وصف هذا الموضع للكوفة (بانها سفلت عن الشام ووبائها وارتفعت عن البصرة وعمقها وحرها ، فهي مريئة مريعة اذا اتتها الشمال هبت مسيرة شهر على مثل رضراض الكافور واذا هبت الجنوب ، جاءتها بريح السواد ووورده وياسمينه وخيريه واترجه ، ماؤها عذب وعيشها خصب) . (ياقوت الحموي مصدر سابق ص٤٩٢) .

فضلا عن ذلك فقد كان لتردي الاوضاع الصحية للمقاتلين المسلمين في المدائن والتي كان من اهم اسبابها وخومة جوها اثرها في التفكير في البحث عن موضع جديد وقد دفع ذلك الخليفة عمر (رض) بان يدرك بان العرب لايلائمهم من البلدان والمناخ الا ما يلائم ثروتهم الحيوانية فخاطب سعد (ان العرب لايصلحهم الا ما يصلح الابل فارتد لهم موضعا عدنا) (البلاذري ،فتوح

البلدان ، مصدر سابق ص ٣٣٩) أي انه ربط بين طبيعة البادية المناخية والمكان الذي سيكون مقرا لهم ولعوائلهم .

وبرز تاثير وخومة مناخ المدائن على احوال العرب وتصرفاتهم بحيث كرهوا السكن في المدائن لانهم استوخموها واستوبأوها، وقد تذمروا من كثرة الذباب والغبار فيها ، وقد ذكر لنا البلاذري بان منطقة المدائن يكثر فيها البعوض حتى ان سعد كتب الى الخليفة قائلا له : ان الناس قد بعضوا وتاذوا من ذلك (البلاذري ، المصدر السابق ، ص ٣٣٨).

يتضح مما تقدم بان للمناخ دور كبير في اختيا وتطوير مدينة الكوفة لحرص العرب بان تكون مدينتهم هذه ذات مواقع صحية خالية من الحشرات وبعيدة عن المباق غير موبوءة ففضلوها على المدن التي اختطت قبلها كالبصرة لصحة هواؤها وعذوبة مياهها ومناخ كهذا لابد ان يجتنب اليه القبائل المتحضرة قبل القبائل البدوية .

الفصل الثالث

الحياة الاقتصادية في مدينة الكوفة

يعتبر انتقال العرب واستقرارهم في مدينة الكوفة ذو فائدة كبيرة في مجمل حياتهم الاقتصادية والاجتماعية ، اذ ان حياة الاستقرار وما رافقها من تحضر رغم بقاء القيم والمفاهيم القبلية تعد بداية للحياة المدنية والحضرية التي عكست تحولا في مناحي حياتهم الزراعية والحرفية والتجارية ساعدت فيما بعد في سعة مدينة الكوفة وتعدد انشطتها الاقتصادية والتي منها :

أولا : النشاط الزراعي :

تعد الزراعة اول مظهر من مظاهر الحياة الاقتصادية في مدينة الكوفة والتي زاولها السكان منذ ان وطئت اقدامهم فيها لما تمتلكه من تربة خصبة وانهار دائمة الجريان فضلا عن خصائصها المناخية والتي تختلف عما كانت

عليه مدينتهم السابقة (المدائن) ، كما وجد العرب في هذه المدينة ارض تختلف عن ارضهم السابقة سواء في الجزيرة العربية ام في المدائن فاتجهوا لممارسة الزراعة والتي صارت حرفتهم الرئيسة .

مورست الزراعة في الكوفة اعتمادا على مياه الري من نهر الفرات والجداول والقنوات المتفرعة منه لان الامطار غير كافية اولا لممارسة الزراعة وتاخر نزولها ثانيا مما دفعهم ذلك للاعتماد على مياه الري (الزراعة الاروائية)والتي من خلالها تم ابتكار وسائل جديدة ساهمت في تطوير عمليات الري ووسائلها بشكل يتفق مع حاجتهم اليها ، وقد ساهمت سياسة الولاة في الكوفة ايضا ومن خلال توجهات الخلفاء لهم في تطوير هذه الحرفة .

بدات حرفة الزراعة تتطور عندما تم توزيع الاراضي الزراعية وتمليكها للمقاتلين اولا وتشجيعهم على احياء الارض الموات ثانيا ، فقد منح من احيا ارضا مواتا حق ملكيتها حيث ورد : (فمن احيا ارضا مواتا ليست في يد مسلم ولا معاهد فهي له او من احيا ارضا مواتا فهو احق بها) (الزبيدي ، مصدر سابق ،ص١٣٦) ، هذا من جانب ومن جانب اخر فقد عمدو الى اصدار الاوامر بحفر الانهار وشق القنوات واقامة الجسور والمسنيات (وهي سدود تتكون من القش والتراب تقام في وجه المياه الجارية)، كما اهتموا بامر البطائح وتجفيفها من اجل زيادة رقعة الاراضي الزراعية والتي توسعت بحيث امتدت من الاراضي المجاورة للكوفة حتى حدود واسط (ابن حوقل ، صورة الارض ، ص٢٣٨) .

كان توزيع الاراضي الزراعية قد شمل ثلاثة انواع منها اراضي الصلح وهي الاراضي التي صالح اهلها المسلمين وبقيت ملكيتها بيدهم لقاء دفع ضريبة واحدة عنها ، والاراضي التي فتحت عنوة بحد السيف فلا تباع ولا تشترى وتبقى ملكا لصاحبها يستغلها في الزراعة ، اما الشكل الثالث فهي الاقطاعيات والتي شملت سواد الكوفة وهي ملكا مشاعا بين المسلمين تضم معها الاراضي التي تقع في داخل مدينة الكوفة وقطائع عامة .

واعتمد في ري الاراضي الزراعية هذه على مياه نهر الفرات فهو المصدر الرئيسي في ذلك وكذلك على الانهار الصغيرة التي شقت من نهر الفرات والتي اهمها : (نهر سورا) الذي ياخذ مياهه من نهر الفرات قاطعا القرية المعروفة بالجديدة ويكون مجراه مابين قرى الكفل وقرية القاسم ويروي المحاصيل الزراعية والقرى الزراعية اولا ، وللاستخدامات البشرية ثانيا ، وينتهي في البطائح ، ونهر (ابا) وهو نهر يقع بين الكوفة وقصر ابن هبيرة) ونهر (البويب) الذي ياخذ مياهه من الفرات حيث يكون مجراه في الكوفة ويصب بالجوف العتيق ، اما نهر (شبيلي) فانه يجري في ناحية من نواحي الكوفة والذي يعرف اليوم بنهر زياد ويكون ماخذه من الفرات عن نهر (الصنين) ونهر (عين جمل) الذي هو احد الانهار الصغيرة التي شقت عبر الجبانات وتنتهي في الاراضي المنخفضة في بحر النجف ، اما القنوات فقد شقت قناتين رئيسيتين عرفتا باسم (قناتي الجامع والمبارك) (راجع شكل رقم ١) .

استخدم اهل الكوفة وسائل ري صناعية لنقل المياه من نهر الفرات وجداول الري والتي منها (الدالية) و(الناعور) والتي تستخدم في رفع المياه من مصادرها عند انخفاض منسوبها ، وقد ساهمت في توسيع مساحة الاراضي الزراعية وزيادة الانتاج وكثافة المحاصيل الزراعية والاشجار لدرجة كان يصعب من خلالها التمييز بين المزارع فكان سواد الكوفة سواد مشتبك غير متميز تخترقه شبكة الانهار المتفرعة من نهر الفرات (الاصطخري ، المسالك والممالك ، ص٥٩) ، وامتد سواد الكوفة من غرب نهر الفرات والحيرة والقادسية حتى حدود الصحراء .

مورست في تلك الاراضي الزراعية وسواد الكوفة عامة زراعة محاصيل متعددة كان في مقدمتها النخيل اذ كان سواد الكوفة من اكثر المناطق التي اشتهرت بزراعته وقد امتدت بساتين النخيل حتى الانبار وهيت(الاصطخري ، المصدر السابق ص٥٨) كما اشتهرت الكوفة بزراعة الحنطة والشعير وقسب

العنبر ، واشتهرت كذلك بزراعة الرز في منطقة البطائح في ضمن الاراضي المنخفضة والاهوار وعلى قنوات الفرات السفلى بين سورا والصراه والنيل (الزبيدي ، مصدر سابق، ص١٤٠) .

وتعد زراعة اشجار الفاكهة قديمة في هذه الاراضي الزراعية ، وكانت اشجار الكروم من اكثرها واشهرها بحيث كثرت انواعها وتعددت اصنافها وما كان مشهورا منها هو عنب (دير العاقول) و (عكرا) و(حلوان) و(عنب سروج) ، واشتهرت الكوفة بسعة بساتينها والتي كانت تضم الى جانب اشجار الكروم اشجار اخرى احاطت بالكوفة منذ ان سكنتها الاديرات حتى وصفها لنا (الشابشتي) بقوله (كانت في الكوفة الديرات تحوي كل اديرة على مائة بيت للرهبان وحول كل بيت بساتين كبيرة فيها الكثير من الثمار والنخيل والزيتون وتجري فيها الانهار) (الشابشتي ، الديارات ، ص١٧١) ، واصبحت هذه البساتين عند دخول العرب الى الكوفة اكثر سعة وعمرانا بعد ان عمروها وازادوا فيها وكان من اشهرها تلك البساتين والذي لايزال اسمه معروفا هو بستان (زائدة) والذي يقع في ضاحية السبخة وهي احدى ضواحي الكوفة (الجنابي ، مصدر سابق ، ص٥٢).

ثانيا : النشاط الحرفي

حضي النشاط الحرفي في العراق عامة والكوفة خاصة بدرجة كبيرة من التطور فمنذ ان قدم العرب المسلمون واستقروا في الكوفة ومارسوا ذلك النشاط وابدعوا فيه واذا مااستعرضنا ما جاء به الجغرافيون والبلدانيون والرحالة عن الانتاج الحرفي في الكوفة فيتضح لنا بانها كانت مركزا لصناعة المنسوجات الحريرية حيث عدت هذه الصناعة من اقدم الصناعات اليدوية والتي تطورت مع مرور الزمن حيث اصبح الكوفيون ذوي شهرة ومهارة خاصة في العديد من فروعها ومنها : (صناعة الوشي) وهو نسيج حريري مطرز وكذلك صناعة (الخز) والتي تتخصص بصناعة عمائم الخز المشهورة انذاك فضلا عن

صناعة العطور (المقدسي ، مصدر سابق ، ص١١٨) .

واشتهرت الكوفة بصناعة البسط والسجاد بانواعه والخيام ونالت تلك الصناعات شهرة واسعة حيث كان الكوفيون يتفننون في تلك الصناعات والتي تعتمد على الصوف او الشعر او الوبر ، كما وجدت صناعة الحصر والتي اعتمدت على مادتها الاولية من سعف النخيل واوراقه والبردي والحلفاء والقصب والتي تكثر في منطقة البطائح .

وانتشرت في الكوفة صناعة استخراج الدهون من بذور السمسم والقطن وصار لهذه الصناعة سوقا عرف (بسوق الزياتين) كما برع الكوفيون في صنع اواني الفخار الدقيقة الصنع والمزينة بنقوش بارزة من النوع المعروف (البارابوتين)ومنها ماهو مطلي بدهان مزجج متعدد الالوان ، وكذلك صنع قوارير الزجاج وقطع الاجر المزجج والاقداح وبعض اواني النحاس فضلا عن صناعة الاسلحة وتجارتها ، وقد تاسس لها سوق عرف (بسوق الحدادين) ، وقد كان لهذه الانشطة الحرفية مكانتها بين المدن العربية الاسلامية بحيث دفع ذلك احد رجال الكوفة والمعروف (بابي بكر الهذالي) ان يفخر بما وصلت اليه مدينته ومقارنتها بالبصرة بقوله : (نحن الكوفيون اكثر منكم ساجا وعاجا وديباجا) .

وانتقلت الى مدينة الكوفة بعد تاسيسها صناعة (الصياغة) من العرب القادمين من الحيرة والمدينة بحيث لاقت هذه الصناعة رواجا كبيرا وتاسس سوق كبير حمل اسم (سوق الصياغة).

وكذلك انتشرت حرفا ثانوية حملت اسماء اسواقها منها سوق الوراقين والنجارين والبقالين والقصارين (محوري الثياب) وباعة الازهار والرسامين وغير ذلك كثير .

ثالثا : النشاط التجاري

تعتبر حرفة التجارة من الانشطة الاقتصادية التي تطورت في مدينة الكوفة ابتداء من تاسيس دار الرزق والكناسة التي تقعان في مناطق محددة وفق تخطيط المدينة ، وقد شهد هذا النشاط ازدهارا وتطورا كان نتيجة تفاعل مجموعة من العوامل منها :

١- الموقع الجغرافي : وصف الجغرافيون بان الموقع الجغرافي لمدينة الكوفة ذو اهمية كبيرة عكس مجمل انشطتها التجارية ، فوقوعها على نهر الفرات جعلها تتصل في الشمال بحلب وانطاكية ثم البحر المتوسط كما تمكنت عن طريق نهر الفرات ايضا ان تتصل جنوبا في الهند عن طريق الخليج العربي .

خلق هذا الموقع لها ان تشرف على طرق المواصلات التجارية السائدة انذاك فقد اصبحت محطة تجارية للتجار الروس الخارجين من الاندلس بعد مرورهم بدمشق ومنها يتوجهون الى البصرة ثم الى بلاد فارس ، كما ان وضعها مركزا للطريق البري الذي يصل الموصل بدمشق عن طريق الحيرة .

وقدر لموقعها الجغرافي هذا ايضا ان يجعلها تتمتع بمكانة مرموقة في عالم التجارة مع شبه الجزيرة العربية لموقعها على طريق البادية اذ تلتقي عندها القوافل القادمة من مكة والذاهبة اليها كما ان موقعها على الطريق البري ربطها مع البصرة عبر بادية الكوفة وبادية البصرة . (ابن خرداذبه ، المسالك والممالك ، ص١٢٥، ٩٩)

٢- والعامل الاخر والمهم يتمثل بسكان الحيرة الذين نزحوا الى هذه المدينة بعد تاسيسها فقد كان لهم دور كبير في تنشيط التجارة في المدينة لما يمتلكونه من خبرة واسعة وممارسة طويلة في هذا الميدان .

٣- وكان لتشجيع الولاة والخلفاء العرب الساكنين في الكوفة اثره في تطوير الانشطة الزراعية والحرفية وما رافقها من زيادة في الانتاج والتصدير

ووفرة الاموال والتي شجعت عمليات التبادل التجاري ونشاط النظام الصيرفي وبالتالي تكوين وبناء علاقات تجارية مع المدن والمناطق المجاورة ، ولاجل تطوير ذلك فقد تم القيام بعدد من المشاريع التي سهلت عملية التبادل التجاري في المدينة سواء اكان ذلك باقامة الجسور ام بتوفير الامن والاستقرار للقوافل القادمة والخارجة من المدينة وانارة الطرق ليلا وتقديم التسهيلات للعمليات التجارية .

ونشأ من خلال تفاعل تلك العوامل عمليات تجارية متعددة وكان مركزها (دار الرزق) ومنطقة الكناسة ، ودار الرزق هذه تقع عند مخرج الجسر المنصوب على نهر الفرات وبالقرب من شارع اليهود ، أي بين الجسر في شرق الكوفة وبين المحل المعروف (بالنبي يونس) ومقامه المعروف في الكوفة والقائم على النهر في وسط العمارات شمال غربي الجامع ، وعلى هذا فان (دار الرزق) كان موقعها في المحل المعروف اليوم (بسوق ال شمسة) او قريبا منه . (الجبوري ، مصدر سابق ص٢٦) . وكان يجمع في هذا الدار متاع المقاتلين واموال الصدقات وغنائم الحرب قبل توزيعها على المقاتلين ، ثم اصبحت دار الرزق مكان واسعا للنشاط التجاري تتوخن فيها الابل التي تحمل البضائع ، وبقربها يتم تفريغ وتحميل البضائع من السفن القادمة او الخارجة من الكوفة ، كما لعبت هذه الدار دورا مهما واساسيا في الحركلات والاضطرابات والفتن الداخلية التي حدثت في الكوفة خلال تاريخها الطويل بعد ان اصبحت هذه الدار مكانا للمضاربات الاقتصادية .

اما (الكناسة) فهي المركز التجاري الثاني الذي نشا في الكوفة وهي تقع الى جوار دار الرزق ، والكناسة سوق كبير يشبه سوق المربد في البصرة وعد مركزا تجاريا مهما ارتبطت به عدد من الاسواق القريبة منه كسوق الرقيق والبزازين وغيرهما .

نشطت الحياة التجارية في الكوفة من خلال عمليات التبادل التجاري بينها

وبين المناطق المجاورة حيث كانت تقوم بتزويد مدن العراق والجزيرة العربية اولا، والدول الاجنبية بصورة عامة ثانيا بما تحتاجه من منتجات ، واعتمدت تجارتها في ذلك على نهر الفرات الذي ربطها بالبصرة والخليج العربي فقد كانت تسير القوافل التجارية النهرية عبره حاملة انواع متعددة من البضائع الى البصرة والهند والصين ، ونشطت تجارتها الخارجية عبر الطرق البرية لوقوعها على حافة الصحراء والتي تربطها مع شبه الجزيرة العربية بايران عبر الجسر المنصوب على نهر الفرات والذي يبقى منصوبا على الدوام لاجل العبور الى الطريق التجاري الكبير والذي يربط اعالي اسيا باقصى اليمن عن طريقين بريطانيا معها هما طريق يربطها بنجد والاخر طريق الاحساء . (ماسينون ، مصدر سابق ، ص٢٩) .

تضمنت صادرات الكوفة المنتجات المحلية التي اشتهرت بها والتي منها مناديل الخز الكوفية والوشي وانواع الدهون والعطور والفاكهة والتمور ، اما وارداتها فكانت تعتمد فيها على المدن العربية الاسلامية المجاورة وخاصة البصرة حيث تستورد منها ماء الورد والحناء ، ومن الموصل تستورد الستور والمستوح واقمشة الموسلين فضلا عن الحنطة والشعير والعسل ، على حين تستورد من واسط البسط والستور والحصر ، اما وارداتها من المناطق المجاورة وخاصة (المدينة) حاضرة الامبراطورية الاسلامية فقد كانت تستورد منها الخيول العربية الاصيلة ، فضلا عن ذلك فان وارداتها من الرمان والتين فمن حلوان والزيت زالصابون من الرقة . (المقدسي احسن التقاسيم ، مصدر سابق ، ص١٤١ ، ١٤٥)

لم يتوقف نشاطها التجاري عند ذلك فقد امتد الى الدول الاجنبية المجاورة فقد نشطت تجارتها مع شبه القارة الهندية عبر الخليج العربي ، فكانت تستورد من الهند التوابل والكافور وجوز الهند والابنوس والياقوت ، على حين نشطت تجارتها مع الصين من خلال تصديرها لها الخزف بانواعه والاواني المزججة

والتمور والفواكه ، واقتصرت وارداتها منها على الحرير والديباج والمسك واواني الفضة والذهب . (ابن خرداذبة ، المسالك والممالك ، مصدر سابق، ص٦٩و٧٠) .

كانت الصيرفة عملا كبيرا ورائجا في اسواق الكوفة التي اتخذت مركزا لعقد الصفقات التجارية الواسعة ، اذ اتقنت الكوفة العمل الصيرفي ونضمتة بشكل يشبه البنوك والمصارف الحديثة .

يظهر لنا اخيرا بان مدينة الكوفة ومنذ تاسيسها لعبت دورا فاعلا في التاريخ العربي الاسلامي خصوصا بعد ان اصبحت عاصمة للخلافة العربية الاسلامية خلال فترة خلافة الامام علي بن ابي طالب (ع)، مما ضاعف ذلك من مكانتها واهميته في مجمل شؤون العراق الاقتصادية والسياسية والتجارية ، وقد اوضحنا بان الجغرافيين اكدو ان اهميت موقعها بالنسبة للطرق التجارية السائدة انذاك جعلها ترتبط مع بلاد فارس شرقا وبدمشق عبر الحيرة غربا فضلا عن طرقها البرية التي تربطها بشبه الجزيرة العربية عبر بادية البصرة ، ولا ننسى طريقها النهري عبر نهر الفرات فقد كانت اهميته قد ارتبطت من خلال اتصاله بالخليج العربي ومنه الى جنوب شرق اسيا والذي نشط من تجارتها مع الهند والصين .

بدات مدينة الكوفة تفقد اهميتها التجارية تدريجيا والذي تمثل بظهور بوادر الضعف والانحلال في اوجه انشطها الاقتصادية وكان ذلك نتيجة تفاعل مجموعة من العوامل كان في مقدمتها هو عدم امكانية مدينة الكوفة من الاستمرار في الحفاظ على هذا الموقع على نهر الفرات اولا وطريقها التجاري النهري الذي كان يفضله التجار لسهولته ورخصه ثانيا ،فضلا عن ظهور مدينتي واسط وبغداد ومنافستها لها ثالثا،لقد تحول الطريق التجاري اليهما والذي فضله التجار لعاملين رئيسيين هما : ان منطقة البطائح التي تحيط بمدينة واسط تخلو من التشعبات مقارنة ببطائح الكوفة والتي تكثر فيها التعرجات والتشعبات

وعدم توفر الامن ، هذا من جهة ، ومن جهة اخرى فان اتصال بغداد وواسط بالبصرة عبر شط العرب وبالتالي الخليج العربي والعالم الخارجي قصيرا وسهلا واقل عرضه للمخاطر مقارنة بطريق الكوفة عبر الفرات .

فضلا عن ذلك كله فكان لموقع مدينة بغداد وموقعها الجغرافي على نهر دجلة جعلها مركز جذب اجتماعي واقتصادي خاصة بعد ان اصبحت عاصمة للدولة العربية الاسلامية فيما بعد وساهمت عوامل اخرى في ذلك الضعف والانحلال الذي وصلت له مدينة الكوفة والتي منها : تعرضها للهجمات التي كانت تشنها قبائل فارسية من جهتها الشرقية وقبائل بدوية غير متحضرة تغزوها بين فترة واخرى من جهتها الغربية بحيث كان تاثير ذلك واضحا في تغير معالم المدينة الحضرية فاصبحت محطة للنزاعات والفتن والمضاربات الاقتصادية والتي اخذ نطاقها يتسع حتى القرن الثامن الهجري .

ظهرت معالم التحلل والانهيار منذ القرن الرابع الهجري وما بعده والذي تمثل في نقل اعمالها وسوادها فاصبحت مضافة الى مدينة السلام ومرفوعة اعمالها الى دواوينها (ابن حوقل ، صورة الارض ، مصدر سابق ، ص٢١٥) ويؤكد لنا المقدسي ايضا ذلك بقوله ان مدينة الكوفة (اصبحت بلد محتل قد خرب اطرافه بعد ان كانت نضير بغداد .(المقدسي ،مصدر سابق، ص١٩٠) وقد استمر ذلك الوضع حتى القرن الثامن الهجري حيث توالى عليها التدهور والخراب وهجرها اهلها وضعفت مكانتها .

الخلاصة والاستنتاجات

اظهرت لنا الدراسة بان العراق ومنذ القدم هو مهد الحضارات وتاسيس المدن العربية التي شهد لها التاريخ ، وان تاسيس تلك المدن وفي مقدمتها مدينة الكوفة كان نتائج تفاعل العوامل الجغرافية والتاريخية والتي اسهمت في تطورها ، ومن النتائج التي توصلنا لها :

١- توصل البحث الى ان العراق كان المركز الرئيسي لظهور وتطور المدن من خلال موقعه الجغرافي في وسط العالم القديم كما ان موقعه يشكل حجر الزاوية للامة العربية الاسلامية التي اتخذت من مدنه ومنها الكوفة مقرا وعاصمة للامبراطورية العربية الاسلامية .

٢-توصل البحث في فصله الاول الى تحديد واضح لاهمية الموقع الجغرافي في نشات مدينة الكوفة وتطورها ، وان ما اطلق عليها من تسميات فقد استمد من الواقع البيئي الذي شغلته خاصة فيما يتعلق بطبيعة تربتها وان تسميتها فقد استمد من الوضع الطوبغرافي لأرضها.

وناقش الفصل نشاة مدينة الكوفة وتبين من خلاله بان اهم العوامل الكامنة وراء نشاتها فقد ارتبطت بمياتها الطبيعية والمتمثلة بموقعها الجغرافي على نهر الفرات وحافة الهضبة الغربية اولا وما يشكله من حلقة او نقطة تشرف على طرق المواصلات التي تربط مركز الدوله الاسلامية بالجيوش العربية المتقدمة في الفتوحات ، فضلا عما امتاز به هذا الموقع من خصائص مناخية فضلتها لان تكون المدينة المنتخبة بدلا من المدائن

٣- كما استنتج البحث الى ان الوضع الطوبغرافي لمدينة الكوفة قد حضي باهتمام الجغرافيين القدماء وما ورد في الفكر الجغرافي عامة اذ تمكنا من خلال ذلك من التوصل الى ان المناخ هو احد عناصر البيئة الجغرافية التي اخذت بنظر الاعتبار عند اختيار موضعها ، الا ان ارتفاع ارضها مقارنة بارض المدائن المنخفضة ، وخصوبة تربتها كانت من العوامل الاساسية في اختيار موضعها ايضاً ، حيث كان تحديد مواقع المدن المختارة ومنها موضع بحثنا (مدينة الكوفة) وفق تلك الاسس ، فقد تميزت عن المدائن وعن البصرة بارتفاعها واعتدال مناخها لوقوعها ضمن النطقة التي تتعرض لهبوب رياح شمالية تسهم في خفض درجات الحرارة المرتفعةوتقلل من وخومة الجو ورطوبته ،كما امكن التوصل الى حقيقة جوهرية مهمة هي ان العرب هم

اول شعوب العالم التي توصلت الى ايجاد العلاقة بين طبيعة تلك الخصائص وصحة الانسان.

وتمكن البحث من التوصل الى ان تخطيط المدن العربية الاسلامية ومنها مدينة الكوفة كان ياخذ بنظر الاعتبار عناصر البيئة الجغرافية ، فقد اختطو معالمهم المدنية ابتداء من تاسيس مسجدها المقدس وانتهاء بدور السكن وفق الاساس الطوبغرافي لمدينتهم والذي تم على ضوءه تحديد المناطق السكنية السبعة والمناهج والاسواق وفق قياسات معينة تاخذ بنظر الاعتبار ما سيطر على المدينة من توسع في المستقبل .

٤- وتبين من خلال البحث ابان الحياة الاقتصادية في مدينة الكوفة اعتمدت على انشطة زراعية وحرفية وتجارية وكان لها اثرها في تطور المدينة وازدهارها ، فقد شهدت الكوفة نشاطا زراعيا اعتمد على خصوبة تربتها ووفرة مياه الري من نهر الفرات وجداوله فضلا عما ساهم به الولاة من تشجيع للمقاتلين العرب في ممارسة الزراعة فتعددت المحاصيل الزراعية وازدادت كثافتها وتوسعت بساتينها فكان سواد الكوفة الذي لم يشبهه سواد في كثافة محاصيله واشجاره ، كما شهدت تطورا في الحرف الصناعية برع الكوفيون في الكثير من اشكالها في حين كان نشاطها التجاري لم تشهد مثله المدن العربية الاخرى حيث تاسست على ارضها اقدم واكثر الاسواق التجارية تطورا في تلك الفترة الزمنية من نشاتها والذي تمثل بسوقي دار الرزق والكناسة واللذان شهدا تطورا في انظمتها المصرفية لم تضاهيها أي سوق اخرى.

تبوأت مدينة الكوفة مكانة دينية وعلمية كانت تحسد عليهما ، فقد كانت مركزا الحدث اجتماعي عظيم بتاسيس المسجد الجامع، وعاصمة للحضارة العربية الاسلامية ومركزا دينيا مقدسا اشتهر بكثرت مساجده او لا تزال على اراضيها الاثار الاسلامية من مساجد وضرائح تنوف أية مدينة اخرى.

واسهمت الكوفة في تاسيس المدارس النحوية والادبية ففيها وضعت اللبنات العتيده الاولى لمدرسة الكوفة في النحو والتي عرفت باسمها ونشات على ارضها المجموعة العتيدة والنفيسة لنهج البلاغة للامام علي بن ابي طالب (ع) والحاوية على الخطب والمواعظ التي لم تظهر قبلها او بعدها اخرى . وفي الشعر فقد ابدع الكوفيون في تحويل الذخائر الماضية – الحماسات والمعلقات – ونبغ على ارضها الاف من علماء اللغة والدين شهد لهم التاريخ في السياسة والاقتصاد .

مصادر البحث

١- ابن حوقل : ابو القاسمابن حوقل النصيبي ، صورة الارض ، منشورات دارالحياة بيروت - لبنان

٢- ابن خرداذبة : ابو القاسم عبيد الله ابن عبد الله(ت ٣٠٠ هـ) ، المسالك والممالك ، ويليه نبذه عن كتاب الخراج وصنعه الكتابة لابي فرج قدامة بن جعفر ، مطبعة بريل – ليدن ١٨٨٩م.

٣- ابن قتيبة : ابي محمد بن عبد الله بن مسلم الدينوري ، عيون الاخبار ، المجلد الاول ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة (١٣٤٣هـ - ١٩٢٥م)

٤- الاصطخري : ابو اسحاق ابراهيم بن محمد المعروف بـ(الكرخي) (ت ١٤٦ هـ) المسالك والممالك ، المجلد الاول ، (١٣٨١ هـ- ١٩٦١)

٥- الاصطخري: مسالك الممالك ، كتاب معول على (صورة الاقاليم) للشيخ ابي زيد احمد بن سهل البلخي ، طبعه ليدن ، ١٩٣٧م

٦- الاعرجي : محمد حسن عبسى ، الشعر في الكوفة ، رسالة ماجستيبر مقدمة الى كلية الاداب ، جامعة بغداد ، نيسان ١٩٧٣ م ،

٧- البراقي : حسين بن السيد احمد ، تاريخ الكوفة ، منشورات المكتبة المرتضوية النجف الاشرف ، ١٩٦٠م

٨- البلاذري : ابو الحسن احمد بن يحيى ، فتوح البلدان ، الجزء الثاني ، ١٩٥٧م

٩- الجبوري : كامل سلمان ، موسوعة تاريخ الكوفة ، تاريخ الكوفة الحديث ، الجزء الاول ، الطبعة الاولى ، مطبعة الغري ، النجف الاشرف ،(١٣٩٤ه- ١٩٧٤م)

١٠-الجنابي : كاظم ، تخطيط مدينة الكوفة ، (عن المصادر التاريخية والاثرية) بغداد (١٣٨٦ه-١٩٦٧م)

١١- حسونة: محمد احمد ، اثر العوامل الجغرافية في الفتوح الاسلامية ، مكتبة النهضة ، مصر، ١٩٦٠م

١٢-الحموي : شهاب الدين ابي عبد الله ياقوت عبد الله ، معجم البلدان ، المجلد الرابع ، دار صادر ، بيروت ، (بدون سنة طبع)

١٣- الزبيدي : محمد حسين ، الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الكوفة في القرن الاول الهجري ،جامعة بغداد ، ١٩٧٠م

١٤- سلمان: عيسى وزملائه ، العمارات العربية الاسلامية في العراق ، الجزء الاول وزارة الثقافة والاعلام ، السلسلة الفنية (٥١)، دار الرشيد للنشر ١٩٨٢م

١٥-الشابشتي ، ابو الحسن علي بن محمد (ت٣٨٨ه) ، الديارات ، بغداد ١٩٦٦م

١٦- علي : معن حمدان ، مباحث عراقية في الجغرافية والتاريخ والاثار وخطط بغداد ، مشورات وزارة الثقافة والاعلام ، دار الرشيد للنشر، ١٩٨١م

١٧- العميد : طاهر مظفر ، تخطيط المدن العربية الاسلامية ، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي ، جامعة بغداد ، مطبعة جامعة بغداد :١٩٨٦م

١٨- القزويني : زكريا بن محمد بن محمود ، اثار البلاد واخبار العباد ، دار صادر بيروت ،١٩٦٩م

١٩- كامل : احمد عادل ، فتوح الشرق - بعد القادسية ، دار الفكر ، بيروت، بدون سنة

٢٠- ماسنيون : المسيو لويس ماسنيون ، خطط الكوفة وشرح خريطتها ،

ترجمة محمد المصعبي ، تحقيق كامل سلمان الجبوري ، منشورات مطبعة الغري الحديثة في النجف الاشرف ، ١٩٧٩م، الطبعة الاولى

٢١- محبوبة : جعفر الشيخ باقر ، ماضي النجف وحاضرها ، مطبعة الاداب ، ١٣٧٨ه- ١٩٥٨م

٢٢- المسعودي : ابو الحسن علي بن الحسين بن علي ، (ت١٤٦ ه) مروج الذهب ومعادن الجوهر ، الجزء الثاني ، والجزء الثالث ، مطبعة السعادة مصر

٢٣- المقدسي : شمس الدين ابو عبد الله بن محمد بن ابي بكر ، احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، مطبعة بريل ، ليدن ، ١٩٠٦م

٢٤- الموسوي : مصطفى عباس ، العوامل التاريخية لنشاة وتطور المدن العربية الاسلامية ، العراق، منشورات وزارة الثقافة والاعلام ، دار الرشيد للنشر ، ١٩٨٢م

٢٥- يوسف : خليف ، حياة الشعر في الكوفة الى نهاية القرن الثاني للهجرة ، وزارة الثقافة ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٨م